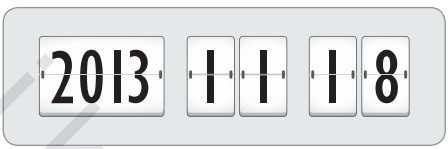

قبل تخرجه ببضعة أشهر، قمنا برحلة إلى آركنسو، ظاهريًّا كي يتقدم لامتحان محاماة، وقال إن عليَّ أنا أيضًا أن أفعل تحسبًا. نجحنا كلانا. مع أنه لم يكن يظن أنه كان يعرف عندئذ، فإنه أخذني بالفعل إلى البيت لمقابلة أمه؛ كنت مرهقة، ووسخة جراء الرحلة الطويلة، معتمرة (قلبقًا) فوق شعري المزيت، بلا أي مكياج، حين التقينا؛ أمه وأنا للمرة الأولى.

ولا أكبر من ذلك التناقض بين شخصين يمكن تصوره؛ كانت امرأة متوهجة شديدة الحرص على مواصلة الألق، كانت متبرجة حتى في النوم، كما قالت؛ كان التبرج يستغرق وقتًا طويلًا. كانت رموشها مظللة بثلاثة خطوط، كان شعرها مزينًا بخصلة مصبوغة باللون الفضي في الوسط. بدت لي أشبه بظربان؛ لن أنسى ما حييت كيف صُدمت حين رأتني للمرة الأولى، صدمتها التي انعكست على وجهها كانت توحي بأن ابنها الرائع كان قد التقط مخلوقة مشردة من تحت أحد الجسور؛ لعله فعلها بحسب ظنها. لم يكن الاختلاف محصورًا بمظهرينا؛ كانت مشهورة بأنها سيدة عاشقة للمتعة واللهو، في تناقض صارخ معي. استقبالها لي كان جليديًّا، ومنافيًّا للأسلوب الجنوبي تحديدًا؛ أخشى ألا تكون قد تجاوزتْ انطباع ذلك اللقاء الأول، أنا أيضًا لم أفعل.

بِلْ فنـان في التملـق، يتقـن انتقـاء الكلمات المناسـبة لاسـترضاء النـاس؛ لا غرابـة! نشـأ في حضن أمه. أول الأشـياء التي كانت تقولها لـه كل صباح: لا أحد يعـترف لي بأني جذابة وبارعـة! وهو يرد عليها: أنت بالغة الجمال يا فيرجينيا، كأنك قديسة، فيضمن بقاءها ملاطفة إياه طوال النهار.

ذات مـرة، كان محلقًـا في الخيـال وأخفـق في إسـماع فيرجينيـا التعليـق المناسب، فأهملته لساعات. غير أن بلي الصغير كان سريع التعلم؛ كف بالمطلق عن النسيان، علمته كيف يتملق النساء ويمدحهن؛ علمته درسًا ظل يطبقه طوال باقي سني حياته.

إحدى قصصي المفضلة عن بل تتعلق بزوج أمه الكحولي، البذيء الذي كان شـديد القسـوة مع فيرجينيا، ولاسـيما حين كان غضبه يزيد أوارًا بنار الغيرة؛ ذات مـرة حـين كان في المراحل الأولى من مراهقته، دخـل بل إلى إحدى الغرف ورأى زوج أمه باطحًا فيرجينيا أرضًـا، خالعًا نعلها الذي راح يضربها به بضراوة، رفعه بل عنها ممسـكًا به من رقبته وصرخ في وجهه السـكران العفن طالبًا منه التوقف، قائلًا إنه إذا أعاد فعلته فإنه سيعرف كيف يتعامل معه.

قلـت: يا لها مـن قصة بالغة الروعة يا هيلاري؛ مراهـق يتصدى لبديل أبيه نجـح في حـل عقدتـه الأوديبيـة ولن يخـاف أبدًا من التنافـس مع كائـن من كان في العالم. حتى في شـبابه، لم يتردد بل في أن يقول إنه سـيصبح حاكم آركنسـو وسيُنتخَب بعد ذلك رئيس جمهورية للولايات المتحدة.

كان بـل محبـوب أمه، عنصر التعويض الوحيد في حياتها، الكأس المقدسـة التي صبت فيها كل ما راودها من آمال وأحلام. تابعت هيلاري: وتولى بل بدوره تهذيـب زوج أمـه وأخيـه روجر؛ كان بل أبًـا، وأخًـا، وابنًا للعائلة كلها. شـغف أمه بـه بـدا رائعًـا، إلا أنه كان خانقًـا. قيل إن أي رجل يقترن زواجًا بنسـخة عن أمه تكون أصغر سنًّا. والشخص الذي قال ذلك لم يسبق له أن التقى فيرجينيا كلي وهيلاري رودهام.